بعض الذكريات عن رائد المسرح اليمني الحديث

■ حسن أحمد اللوزي

«..يستعصي الحديث عن مرارة الآلام الباعثة لأشد الأحزان في حالات من الفقر الذي يأتي داهماً في حياة الناس لصلته بعزيز لديهم..ولأنهم لم يعهدوا مثله في المواجهة المؤسفة والاختبار الأليم والمواقف الصعبة..التي يثيرها من شرارته الأولى ويكبر في مشاعرهم..ونفوسهم ليعتصر الأفئدة..ليتعدى الحدود التي يتحملونها..ولا يطيقون معه صبراً سوى الامتثال لإرادة الله الخالق عز وجل والاعتصام بالحمد وتحمل بدة الصبر..والمعاناة!!

إن وجع الألم الذي يشعله النبأ من أول وهلة يتحول إلى دوامة من الآلام التي تعتصر الأحاسيس كلها حتى يظن الإنسان المتألم بنفسه الظنون من كل ما يعتريه وما يشبه فقدان الكلام..والعجز عن التعبير وفقدان القدرة حتى على البكاء والنحيب..كثيراً ما واجه البشر مثل تلك الحالات..وغاصوا فيها، بل وغاصت بهم في الساعات الداكنة..والغيوم المتحجرة في العيون..وجيشان الغيث الرحيم، لا شك أن ذلك كان حال الكثيرين مع فاجعة المواجع المركبة..الأليمة..والمريرة مع معاناة مرض ورحيل المغفور له بإذن الله الأديب الكبير والشاعر الثائر ورائد المسرح اليمني المعاصر الأستاذ محمد حسين الشرفي وما زالت امتداداً لما قدمه رائد المدرسة المسرحية الأول علي أحمد باكثير رحمه الله..وما زالت بيانات النعي وكلمات وكتابات وقصائد الرثاء تتوالى محنية الظهر..عاجزة عن الوفاء بحقه بعد ارتقائه إلى الرفيق الأعلى..وبعد أن حقق الراحل الجليل اكتماله في ذمة الله سبحانه وتعالى وفي ذرى التاريخ الأدبي والثقافي والفني المشرق الذي خطه بأحرف إبداعية خالدة..وبإنتاج باق لا يموت ستظل باسقة أشجاره العالية وارفة الثمار في كل الحقول التي حرث فيها وزرع وسقى وكتب وأعطى فأخصب..في الشعر والأدب..كما في المسرح والإعلام وفي عمق الثقافة اليمنية الجديدة والسلك الدبلوماسي، كما في المواقف الوطنية والثورية الحاسمة..والجهاد الاجتماعي في نصرة حقوق شقائق الرجال وقد جعل له في كل ذلك أسفاراً متميزة له وبصمات خاصة به..تفرد بها عن سواه يرحمه الله ويوسع عليه من نعيمه.

وإذا كانت هذه الكتابة امتداداً لما سبق أن نشرته وشهدت به أمانة فهي نوع من العرفان بالجميل كواحد ممن تعلموا منه في البدايات الأولى في رفقة حمل سلاح الكلمة وأردت عاماً أن أخصص هذه الكتابة لحقل العطاء المسرحي في حياته الإبداعية والإنتاجية ولا أبالغ أبداً عندما وصفته بأنه رائد المسرح اليمني الحديث، فلأنه يستحق ذلك عن جدارة لكل ما أعطى..وقدم في هذا المجال..بل وجاهد بسعيه الدؤوب من أجل أن يوجد المسرح في بلادنا كمدرسة متاحة للشعب..تتقاطر إليها الجماهير برغم كل ما يعرفه عن الشروط المطلوبة..والمعوقات القائمة..وحتى إذا لم تتوفر أماكن العروض المسرحية «المسارح» فليتم تقديم العروض المسرحية في الميادين وبالإمكانات البسيطة طالما يمكن تجهيز المنصات الخشبية..فضلاً عن استغلال دور السينما الفاتحة منذ الستينيات وبداية السبعينيات من القرن المنصرم وكان إيمانه بأن النصوص المسرحية النثرية والشعرية لا تكتب ترفاً..وإنما لتشخص ولتعرض على الجماهير لتوصل الرسالة الثقافية المطلوب نشرها إليها وقد كتب الكثيرون عن شعره ونصوصه المسرحية..ولم يتطرقوا لما تم مسرحته وعرضه منها..للأسف الشديد!!نعم لقد شهد المسرح في بلادنا نهضته الأولى التأسيسية في ظروف صعبة - وأنا أتحدث هنا عن صنعاء - في بداية السبعينيات من القرن المنصرم وذلك باهتمام كبير..ورعاية خاصة من قبل الأستاذين الجليلين أحمد قاسم دهمش وزير الإعلام حينذاك ويحيى حسين العرشي وزير الإعلام والثقافة فيما بعد..وقد توجه جهدهما نحو توفير قاعات العروض الفنية والمسرحية من خلال تنفيذ المشروع الوطني الثقافي الرائد بناء المراكز الثقافية في عواصم المحافظات بداية من العاصمة صنعاء - وقد توسع في تشييد العديد منها بفضل الجهود التي بذلها معالي الأستاذ يحيى حسين العرشي بما في ذلك إنشاء أول معهد للموسيقى وقد قدمت خلال تلك الفترة أهم العروض المسرحية لعدد متميز من كتاب المسرح ونخص منها ما أسهم به الراحل الجليل محمد حسين الشرفي مثل مسرحية «الطريق إلى مارب» ومسرحية «المعلم» وهذه الأخيرة تم عرضها في عدن الحبيبة في العيد العاشر للاستقلال وحظيت بإعجاب منقطع النظير وقد شجعت أعماله المسرحية الرائعة والمحكمة أن يتصدر لتمثيل الأدوار النسائية والبطولية فيها رائدات في العمل الإعلامي والثقافي في المقدمة منهن المغفور لها بإذن الله الدكتورة رؤوفة حسن والأستاذة الجليلة أمة العليم السوسوة حفظها الله ورعاها والمغفور لها بإذن الله الإعلامية الرائدة زهراء طالب وكل رواد المسرح الوطني اليمني..وقد تم عرض عدد من تلك المسرحيات الرائدة في كل من مدينة تعز..ومدينة الحديدة ومدينة إب وذمار ضمن حركة الفرق الفتية الموسعة التي كانت تجوب المحافظات ابتهاجا بأعياد الثورة اليمنية قبل أن تتكون الفرق الفنية الموسيقية والمسرحية في المحافظات غير أنها كانت بداية للرحلات الثقافية التاريخية والتي استهدفت كسر الحواجز والقيود وبناء جسور التواصل بالجماهير المتعطشة للثقافة ولكل أنواع الفنون التقليدية...والجديدة وهي الفكرة التي طورها الأستاذ يحيى العرشي وزير الإعلام والثقافة إلى أسابيع ثقافية أخذت تتوجه إلى الأقطار العربية بداية من الأسبوع الثقافي اليمني في دولة الكويت وكان يصاحب بعض هذه الأسابيع عروض مسرحية متميزة وقد شارك الراحل الجليل في البعض منها شعراً..ومسرحاً..على أن النقلة التاريخية الفريدة والمتميزة التي شهدها تطور النشاط المسرحي قد بلغت محطتها المرموقة تاريخيا بعد إنجاز نصر إعادة تحقيق الوحدة اليمنية الخالدة وقيام دولة الوحدة المباركة محصنة بالحرية والممارسة الديمقراطية ومع الإعداد والإنجاز للمهرجان الأول للمسرح اليمني من 8-16 أكتوبر 1992م.

تجسيد الشعار" المهرجان الأول للمسرح اليمني انطلاقة نحو نهضة مسرحية..ومن أجل مسرح دائم ومتطور..قام برعايته الدكتور حسن مكي النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء..وشهده عدد من الضيوف العرب على المهرجان وفي مقدمتهم الأديب المسرحي والشاعر العربي السوري الكبير خالد البرادعي والأديب والناقد الدكتور فائز الراية والأستاذ والمخرج المسرحي القدير حسين الأسمر والمهم في هذه الإشارة هو التذكير بأن واحداً من أصحاب الفضل في تبني فكرته والمساهمة في إنجاحه هو الأستاذ محمد الشرفي وقد قدمت فرقة المسرح الوطني في أبين مسرحيته " العشاق يموتون كل يوم" من إخراج أحمد عبدالله حسين..وقد احتضن المهرجان أربع عشرة فرقة مسرحية قدمت خمسة عشر عرضا مسرحيا..إحدى عشرة فرقة مسرحية قدمت إلى صنعاء من كل من عدن وحضرموت وأبين وتعز والحديدة ولحج والجدير ذكره أن جائزة أفضل نص مسرحي فاز بها الأديب الكبير والشاعر محمد حسين الشرفي ونختم مقال هذا الأسبوع بما قاله الأديب والكاتب والناقد المسرحي العربي الكبير خالد محيي الدين البرادعي الذي اعتبر محمد الشرفي في مقدمة كتاب النصوص المسرحية الممتازة التي تكتب باللغة الفصحى وتحكي أو ترصد تاريخ نضال هذا الشعب في هذا القطر العربي العريق وهو مثال بارز يتعين الاقتداء به وخاصة الكتابة باللغة العربية الفصحى لأهمية توجيه خطاب المسرح إلى الأمة العربية التي تعاني من وطأة التمزق.

سرد اللحظة الراهنة

تنطلق رواية "سبع سنوات" للكاتب السويسري بيتر شتام من موتيف قديم في الأدب العالمي يعرف بموتيف "رجل بين امرأتين"، وهو موتيف يقوم على توزع الرجل بين امرأتين توزعًا يدخله في صراع عنيف ويجعله يشعر بالتمزق والانشطار جرّاء ما يعيشه من مأزق حياتي وليس يخفى أن عنوان الرواية يحيل على السنوات السبع التي وردت في رؤيا ملك مصر ،كما أنّ الرواية تشير إلى ما تذكره التوراة عن النبيّ يعقوب وزواجه من راحيل، ليعود بعد سبع سنوات ليتزوج من شقيقتها ليا.

لكنّ "سبع سنوات" تحاول أن ترسم حكاية تنفصل عن مرجعياتها و إن كانت تتحرك في ثناياها، وتسعى كي تكون واحدة من الأعمال الأدبية في سياق الموتيف الذي سبقت الإشارة له. فـ"سبع سنوات" تتحرك في عالم تتوزع شخصياته بين الهندسة المعمارية والرسم وتتطور أحداثها في هذا العالم الذي يجمع بين الأضواء والظلال، القادرة على حد تعبير لوكوربوزييه، أحد المعماريين الفرنسيين الكبار، على كشف الأشكال وفضح ملامحها.

لقد سبق للباحثة الألمانية المعروفة إليزابيث فرنتسل أن توقفت في معجمها المتخصص الذي صدر عام 1980تحت عنوان "موتيفات الأدب العالمي" عند هذا الموتيف وتتبعت تطوره في الأدب ابتداء من الأوديسة وانتهاء ببعض الأعمال الروائية التي صدرت في ستينات القرن الماضي. ويتبين من استعراض فرنتسل المكّثف لهذا الموتيف أنّ توزّع الرجل بين امرأتين كان متنوّع الأبعاد والمستويات وأنه يتخذ في كل عمل من الأعمال بعداً متفرداً.

تتوزع حركة السرد في "سبع سنوات" بين الاسترجاع الذي يتمثل في تذكّر الكسندر بطل الرواية لعلاقته بالمرأة البولندية إيفونا وبين سرد اللحظة الحاضرة الذي يرسم حياته بجوانبها المتعددة وإن كان يتوقف على نحو رئيسي عند علاقة الكسندر بزوجته سونيا وبين هاتين الحركتين تتحرك الأحداث وتتنامى وتتشكل أجواء الرواية .

وإذا كانت العلاقة بين الكسندر وسونيا هي ثمرة لصلة ممتدة تعود إلى سنوات الدراسة الجامعية، فإن علاقة الكسندر بإيفونا التي غيرت مجرى حياته هي ثمرة لقاء عابر في أحد مقاهي ميونيخ .وتكشف المقارنة بين هاتين العلاقتين عن فروق جوهرية تصبّ كلها لصالح سونيا. ففي حين كانت سونيا مهندسة معمارية متفوقة، تتميز بالجمال وقوة الشخصية وطلاقة الحديث، كانت إيفونا على العكس من ذلك تماما؛ فهي بولندية تقيم في ألمانيا على نحو غير شرعي وتعمل في تنظيف الغرف. وقد ذكر الكسندر، غير مرة، أنها دميمة وغير أنيقة و ساذجة وبطيئة الاستيعاب.

يقدم سرد اللحظة الحاضرة الأبعاد التي تتشكل الأحداث والشخصيات في رحابها. فنحن أمام شخصيات تدرس الهندسة المعمارية وتسعى، بعد تخرجها في الجامعة، إلى تحقيق ذاتها. وتهتم الرواية بتتبع مصائر هذه الشخصيات وتبين ما طرأ عليها من تحولات بعد أن انتقلت إلى عالم الحياة وفارقت عالم النظريات. لذا كانت الرؤى المعمارية التي تصدر الشخصيات عنها تتوزّع بين الكلاسيكية والحداثة والتفكيك، وقد كثرت الإشارات إلى المعماريّين الذين يمثلون تلك الرؤى.

تنتمي سونيا لتيار الحداثة وتدافع عن ممثليه وتبدو الأقدر على الإفادة من منظوره، فرسوماتها المعمارية تقوم على جدل الاتصال والانفصال، فبقدر إعجابها بالحداثة، تسعى كي تستقل عن رسومات روادها وتشكيل لغة معمارية مستقلّة. أما الكسندر الذي يبدو حريصاً على التمرد على المواضعات الاجتماعية والدينية، فيخضع على مستوى الرؤية المعمارية للأساتذة الكبار في هذا المجال ويكاد يكون تابعاً لهم.

تبدأ الرواية من لحظات النهاية وتعود القهقرى إلى لحظات البداية من خلال استرجاع يقطع زمن السرد ويستدعي الماضي ويوظّفه في مجرى اللحظة الحاضرة ليغدو جزءا من نسيجها فترتيب الوقائع في "سبع سنوات" يغاير ترتيبها في نظام الحكاية.

مؤلف الكتاب بيتر شتام أديب سويسري من مواليد عام 1963. درس بعض الفصول في اللغة الإنجليزية وعلم النفس. أقام في باريس، وبرلين، ونيويورك، وتفرغ للكتابة والعمل الصحفي منذ عام 1990. وقد صدرت له روايتان، وثلاث مجموعات قصصية.

مترجم الكتاب أ.د. خليل الشيخ، وهو باحث وناقد أدبي ومترجم، يعمل رئيس قسم اللغة العربية في جامعة اليرموك- الأردن، حصل على الدكتوراة من جامعة فريدريش فيلهلم- بون- ألمانيا عام 1986. وعمل أستاذاً زائراً في أكثر من جامعة أردنية وعربية. أصدر عدداً من الدراسات من أبرزها: "الانتحار في الأدب العربي"، "باريس في الأدب العربي" و"دوائر المقارنة"....وغيرها. كما أن له العديد من الكتب المترجمة عن الالمانية، نذكر منها: "يوميات فرانتس كافكا 1910-1923"، "آدم وإيفيلين" لإنجو شولتسه، و"أوروبا والشرق من منظور واحد من الليبراليين المصريين" لبوبر يوهانزن.

الرواية صدرت عن مشروع "كلمة" للترجمة التابع لهيئة أبوظبي للسياحة والثقافة وترجمها الدكتور خليل الشيخ .

موعد

■ عمار الزريقي

السَّاعَةُ الآنَ .. إِلَّا..
عَقَارِبُ الوَقْتِ كَسْلَى
تَمْتَصُّنِي مِنْ سُكُونِي ..
تَغْتَالُنِي وَهْيَ عَزْلا
وَأَرْنَبُ الشِّعْرِ شَيْخٌ
فِي هَتْكِ صَحْوِي تَسَلَّى
عَقَارِبُ الوَقْتِ مَلَّتْ
وَخَادِمُ الْحُبِّ مَلّا
السَّاعَةُ الآنَ صِفْرٌ
هَلْ أَذَّنَ الوَعْدُ؟ .. كَلَّا!

****

الْحُبُّ وَهْمٌ لَذِيذٌ
وَكَعْكَةُ الشِّعْرِ أَحْلَى
شَيْطَانُهُ فِي تُخُومِي
تَبًّا لَهُ كَمْ أَضَلّا
أَضَلَّ عَنِّي جِبِلّا..
وَصَدَّ عَنِّي جِبِلّا
وَبَعْدَهَا قَامَ يَنْوِي
تَمَرُّدًا فِي الْمُصَلَّى
قَدْ كَانَ لِي مُنْذُ عَهْدٍ
أَخًا .. صَدِيقًا .. وَخِلّا
مِنْ قَبْلِ كَسْرِي اضْطِرَارًا
يَرُومُ رَفْعِي مَحَلّا
يَهِيمُ فِي كُلِّ صَدْرٍ
وَيَنْظُمُ العِشْقَ قُلّا
يَنَامُ فِي سَفْحِ صَنْعَاءَ
مُصْبِحًا فِي المُكَلّا
وَأَمْتَطِيهِ شِرَاعًا
إِلَى رَصِيفِ المُعَلّا
يَقُولُ قُمْ يَا رَفِيقِي
نُرِيدُ مَاءً وَظِلّا
تَعَالَ حَيْثُ الصِّبَايَا
يَقْطُرْنَ سِحْرًا وَدَلّا
وَكَانَ أَوْفَى رَفِيقٍ
فَكَيْفَ عَنِّي تَخَلَّى؟!

****

السَّاعَةُ الآنَ دَارَتْ
وَمَوْعِدُ الْحُبِّ وَلَّى
السَّاعَةُ الآنَ .. مَوْتٌ
مِنْ كُلِّ وَجْهٍ تَدَلَّى
كَأَنَّ أُمَّ الْمَآسِي
تَزَوَّجَتْ وَهْيَ حُبْلَى
وَلَيْلَةُ الْحُزْنِ عَادَتْ
عَرْجَاءَ شَمْطَاءَ حَوْلا
تَثَاءَبَتْ وَهْيَ تَتْلُو
مَا قَلَّ عَنِّي وَدَلّا
وَكُنْتُ مِنْ تَحْتِ جِلْدِي
أَمُوتُ جُزْءًا .. وَكُلّا
أَرَى البِدَايَاتِ مَنْهَىً
وَالْمُنْتَهَى مُسْتَهَلّا
يَا مَوْعِدَ الْحُبِّ طَارَتْ
أَصَابِعِي وَهْيَ خَجْلَى
أَصَابِعِي العَشْرُ ثَارَتْ
عَلَى زَمَانٍ تَوَلَّى
ثَارَتْ عَلَى كُلِّ حَرْفٍ
يَذُوبُ فِي عِشْقِ لَيْلَى
وَالذَّنْبُ ذَنْبِي لِأَنِّي
أَحْبَبْتُ قَوْلًا وَفِعْلا
هَلْ كُنْتُ فِي حُبِّ لَيْلَى
إِلَّا كَرِيمًا مُقِلّا
صَادَفْتُ لَيْلَى بِبَابِي
فَقُلْتُ: أَهْلًا وَسَهْلا
"حَيَّا بُهُمْ" يَا حَيَاتِي
شَرَّفْتِ يَا "سَنْدَرِيلّا"
أَحْبَبْتُ وَالْحُبُّ أَعْمَى
يَا عَاذِلِي فِيهِ .. مَهْلا
خُلاصَةُ الأَمْرِ أَنِّي
غَرِقْتُ رَأْسًا وَرِجْلا
أَحْبَبْتُ لَيْلَى .. وَلَيْلَى
لا تَعْرِفُ الْحُبَّ أَصْلا!

****

* صنعاء - 13 أبريل 2012